جامعة زيان عاشور – الجلفة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

المستوى: جذع مشترك أولى علوم إنسانية

المقياس: تاريخ الحضارات القديمة

إعداد: د/ أحمد ثليجي

الموضوع:

الحضارة القرطاجية

1 تأسيس قرطاجة وظهورها في المغرب القديم:

بالرغم من وجود احتمالات عديدة حول التاريخ الحقيقي لبناء قرطاجة، إلا أن التاريخ الذي تحدده المصادر الكتابية وهو 814 ق.م يبدو أقرب التواريخ إلى الصحة، وقد حدد هذا التاريخ على اعتبار أن تأسيسها قد سبق بداية الألعاب الأولمبية الأولى(776 ق.م) بحوالي 38 سنة، وتأخر عن ظهور مدينة أوتيكا(1101 ق.م) بمقدار 287 سنة، وقد كانت قرطاجة من بداية نشأتها واحدة من المدن الفينيقية العديدة التي أنشئت على الساحل الشمالي لإفريقيا، ويبدو أن عليسة ومن معها من المستوطنين الفينيقيين الذين أسسوها قد سموها (قرط حدشت) أي المدينة الجديدة تمييزا لها عن "أوتيكا" أو المدينة العتيقة.

2 أسطورة بناء المدينة:

إن المصادر التي تتحدث عن أصول قرطاجة، والمتمثلة في نصوص المؤرخ اليهودي "يوسيفوس" التي ألفها بالاستناد إلى الكاتب اليوناني "ميناندروس الأفيسوسي Ménandré d'ephese" والذي اعتمد بدوره على وثائق وحوليات ملوك مدينة صور، وما وصلنا كذلك عن طريق "تيمايوس 340–250 ق.م" كل ذلك يمثل بالتأكيد أهمية تاريخية، ولكنها محاطة بالغموض والأساطير، وبعض التناقضات مما يؤدي إلى صعوبة تحديد الظروف والأسباب الحقيقية التي أدت إلى تأسيس هذه المدينة.

وتذكر الأسطورة بأنه بعد وفاة الملك (ماتان– Matan) ملك صور عاد الحكم لابنيه عليسة (Alissa) وبغماليون(Pygmalion)، وكانت عليسة في غاية الجمال فتزوج بها "عاشر باص" كبير كهنة معبد الإله (ملقرط) وكان ذو ثروة كبيرة، وقد خشي عاشر باص على ثروته من اللصوص ومن جشع بغماليون كذلك فدفنها تحت جدران المعبد، وعندما بلغ نبأ الكنز المدفون الملك الذي كان هو الآخر يحب المال كثيرا قرر الاستيلاء عليه ولم يتوان في قتل خاله وزوج أخته في نفس الوقت، وشعرت عليسة بأنها مجبرة على الفرار، وعرفت كيف تحتال على شقيقها وتظاهرت أمامه بعدم الاكتراث بالحادثة التي كانت تحز في نفسها.

وأبحرت بأموال زوجها صحبة مؤيديها إلى قبرص ومنها إلى إفريقيا، بعد أن انضم إليها في قبرص كاهن (يونو– juno) الذي ضمن لنفسه ولأسرته من بعده الإشراف الديني في المدينة الجديدة، كما أخذت معها من قبرص ثمانين فتاة من فتيات المعبد ليكن أزواجا للشباب الذين كانوا

معها. وقد نزلت بعد ذلك بالقرب من مدينة أوتيكا ورحب بها سكان المنطقة، واشترت منهم قطعة أرض بمقدار جلد ثور، قطعت الجلد إلى أشرطة صغيرة أحاطت بمساحة تكفي لبناء مدينتها الجديدة (قرط حدشت).

3 أهمية قرطاجة الإستراتيجية:

يتضح مما كتبه المؤرخون القدماء، وما أسفرت عنه النتائج الأثرية التي توالت في مواقع قرطاجة، بأنها قد امتازت بموقعها الاستراتيجي الهام حيث أنها بنيت على موقع يوصف بأنه شبه جزيرة محاطة بالبحر من جهة، وبحيرة تونس وأريانة من الجهتين الأخريين، أما من الخلف فإنها محمية بمرتفع (بيرصة– Byrsa) الذي بني في قمته معبد الإله أشمون، ولا تتصل قرطاجة باليابسة إلا عن طريق مسافة ضيقة يبلغ طولها حوالي أربعة كيلومترات ونصف، وعلى مسافة غير بعيدة من قرطاجة عبر الشاطئ كانت تقع أوتيكا.

ويتضح مما سبق بأن موقع قرطاجة الاستراتيجي في خليج شمال تونس كان قد أهّلها لأن تلعب دورا هاما في الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما جعلها تعمل على إبراز مجتمع بوني يمتزج فيه المغاربة بالقادمين الجدد من الفينيقيين.

ومن خلال هذه الأهمية فإن الرأي المعتمد على أسطورة يوسيفوس والسائد لدى المؤرخين والقائل بأن قرطاجة قد تأسست نتيجة للصراع القائم بين حزبي بغماليون وعليسة في مدينة صور، أو بصورة أخرى نتيجة للصراع بين القصر والمعبد، ثم فرار الحزب المهزوم إلى شمال إفريقيا وتأسيسه عفويا لمدينة حديثة عرفت فيما بعد بقرطاجة، لا يزال يحتاج إلى كثير من الدراسة والبحث والاهتمام، لأن الأمر على ما يبدو لم يكن اعتباطيا وعفويا بل كان وفق مخطط مدروس، ويظهر ذلك من خلال ما بيّناه سابقا من حيث:

- أهمية الموقع الاستراتيجي الذي احتلته قرطاجة والذي ستتضح أهميته من خلال تاريخ المدينة السياسي والاقتصادي والعسكري فيما بعد.
- تعلق قرطاجة بصور واعترافها لها بنوع من التبعية والمتمثل في توجيه وفد كل سنة إلى صور لحضور حفلات القربان في معبد صور الأساسي، وكان الوفد القرطاجي يحمل معه هدية تمثل عشر (10/1) مداخيل الدولة حسب ما ورد في أخبار القدامى.

- حضور الأميرة عليسة شقيقة الملك وزوجة الكاهن الأكبر يبيّن لنا ربما الطابع الرسمي لهذا الإنجاز، ويوضح لنا المكانة التي تحتلها قرطاجة ضمن المستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

وعلى مستوى سكان بلاد المغرب القديم وعلاقتهم بالوافدين الجدد فإن ما يمكن أن يقال هو وجود قيادة عليا تتمثل في شخص (ايرباص– Hiarbas) الذي كان يفوّض له القيام بالحرب وعقد السلم، وتسيير شؤون القبيلة أو الإقليم، وهو ما جعل عليسة ومن جاء بعدها يضبطون قضية الضرائب التي تدفع سنويا للمغاربة مقابل إعطائهم الأمان، وهو ما يشير إلى علاقات المصالح المشتركة التي ميزت اللقاءات الأولى الفينيقية المغربية.

4 تشكل الإمبراطورية القرطاجية وتزعمها لمستوطنات غربي المتوسط:

لقد كانت بداية قرطاجة متواضعة، وظلت تدفع الضرائب للمغاربة لمدة تزيد على ثلاثة قرون (814–480 ق.م)، ولكنها منذ تأسيسها عام 814 ق.م أخذت تنمو وتكبر، ويتسع عمرانها ويرتفع عدد سكانها، ويعلو شأنها حتى أصبحت فيما بعد مركز الحضارة وملتقى التجارة العالمية، وعاصمة الشمال الإفريقي من خليج السرت في ليبيا شرقا إلى أعمدة هرقل غربا.

وابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت قوة بحرية تعمل على السيطرة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، ومسؤولة على إمبراطورية مترامية الأطراف تضم كلا من جنوب اسبانيا وسواحل إفريقيا الشمالية، وجزر الباليار وسردينيا، وكذلك جنوب غربي صقلية. الأمر الذي جعلها تتحكم في مضائق الحوض الغربي للبحر المتوسط، مما جعل المؤرخين يسمون هذه الأخيرة بالبحيرة القرطاجية.

وقد ترتب عن ذلك أن احتكرت قرطاجة تجارة الحوض الغربي للمتوسط وألزمت روما وحلفاءها بعدم التجارة على شواطئه الجنوبية قبل أخذ إذن القرطاجيين.

أما عن طبيعة العلاقات التي تربط قرطاجة بباقي المستوطنات الفينيقية فيبدو أنها كانت مكلفة بالسهر على أمنها وممتلكاتها مقابل الاعتراف بسلطة قرطاجة في بعض المجالات السياسية والاقتصادية، أي نظام المدينة الدولة، ذات السيادة في المسائل الداخلية، أما السياسة الخارجية وعقد الاتفاقيات والمعاهدات فتعود لمدينة قرطاجة التي تولّت التعامل مع الإغريق والإتروسكيين والرومان.

5 النشاط الاقتصادي:

لقد شكلت قرطاجة وأوتيكا ومقابلاتها من المستوطنات الفينيقية في الجزء الجنوبي الغربي من صقلية مفاتيح الاتصال بين شرقي المتوسط وغربه.

التجارة:

لقد ساهم الموقع الاستراتيجي لقرطاجة في أن تلعب دورا اقتصاديا هاما وخاصة في ميدان التجارة ولم يكن القرطاجيون في بداية تاريخهم يهتمون بالزراعة والصناعة بقدر اهتمامهم بالتجارة التي كانت تدر عليهم أرباحا طائلة، خاصة وأن أجدادهم الفينيقيين كانوا ملاحين مهرة وتجارا بارعين، وقد تمثل دورهم التجاري في إيصال خامات معادن الفضة والقصدير والرصاص إلى الدول المصنعة في شرقي المتوسط، ثم نقل البضائع المصنعة من هذه الدول إلى الشعوب المتأخرة في غرب المتوسط.، وقد كان لأسطولهم التجاري الضخم دور كبير في ذلك.

ولكي تضمن قرطاجة السير الأمثل لتجارتها وزيادة توسعها في البحر الأبيض المتوسط فقد تحالفت مع الإتروسكيين، وفرضت سيادتها على التجار الإغريق والرومان، وارتبطت مع روما بمعاهدتين: الأولى: في 509 ق.م والثانية: في 348 ق.م، وبموجب هاتين المعاهدتين احتكرت قرطاجة التجارة في الحوض الغربي للمتوسط وألزمت الرومان وحلفائهم على أخذ إذن القرطاجيين في ممارسة التجارة في تلك الشواطئ.

الصناعة:

لقد كان النشاط الصناعي مع بداية تأسيس قرطاجة في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد بسيطا تمثل فقط في بعض الصناعات المرتبطة أساسا بتطوير النشاط التجاري، مثل صناعة السفن وإصلاحها، واستخراج صباغة الأرجوان من محار الميوريكس المستخدم في الصناعات النسيجية، إضافة إلى صناعة الفخار التي تنقصها الجودة والإتقان مقارنة بمثيلتها في الحوض الشرقي للمتوسط.

وتعتبر معركة هيمرا سنة 480 ق.م منعطفا حاسما في تاريخ قرطاجة عندما انهزمت أمام اتحاد المدن الإغريقية، وذلك عندما أدرك القرطاجيون أنه لا يمكنهم الصمود مستقبلا في أي صراع ما لم يكونوا يملكون صناعة قوية، ولذلك فإن الصناعة القرطاجية لم تزدهر إلا اعتبارا من القرن الخامس قبل الميلاد. كما عمدوا في نفس الفترة إلى تشجيع الزراعة في إفريقيا، وهذا ما يطلق بمرحلة التحول عند القرطاجيين واتجاههم وجهة إفريقية.

ومن أهم الصناعات يمكن أن نذكر مايلي:

- صناعة المعادن، وصناعة الأخشاب والنقش على الأحجار الكريمة.
- صناعة النسيج والثياب الأرجوانية.
- الصناعات الفخارية التي كانت تشكل مادة هامة في الصناعة القرطاجية بالرغم من عدم جودته وطابعه الفني.

وفي أثناء الحرب البونية الثالثة (149–146) ق.م برزت القوة الحقيقية للصناعة القرطاجية وخاصة في مجال صناعة الأسلحة مثل السيوف والدروع والرماح وغيرها.

الزراعة:

لم يعتمد القرطاجيون على التجارة والصناعة وحدهما، بل كان للقطاع الزراعي أيضا مكانته الخاصة، وفي بداية الأمر ومع البدايات الأولى لتأسيس قرطاجة كانت الزراعة تنحصر في منطقة شبه جزيرة رأس بونة، لتتطور بعد ذلك وتشمل منطقة شمال تونس خاصة مع بداية القرن الخامس قبل الميلاد عندما توجه القرطاجيون نحو إفريقيا،واحتلوا مساحات زراعية شاسعة، في محاولة منهم لتعويض خسائر التجارة البحرية التي تقلصت بعد هزيمة معركة هيمرا، وقد تحدث عن ذلك "ديودور الصقلي" عندما أشار إلى مدى إعجاب أغاثوكليس وجنوده بالازدهار الصناعي الذي لاحظوه في طريقهم إلى غزو قرطاجة: الكروم، الزيتون والبساتين، وكذا مراعي واسعة مكتظة بقطعان الماشية من خرفان وثيران وخيول.

وقد برع القرطاجيون في ميدان الزراعة فظهر من بينهم العلماء المختصون الذين أغنوا مكتبات العالم القديم، ومن بين هؤلاء نذكر العالم "ماغون" الذي عاش في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، وألف دائرة معارف تتكون من 28 كتاب ضمنها خبرته في مجال الزراعة.

والشذرات المتبقية من هذا الكتاب تبين لنا أن القرطاجيين زرعوا الحبوب والخضر والزيتون والأشجار المثمرة خاصة التين والرمان واللوز والإجاص، وربوا الأبقار والخيول والبغال والدواجن والنحل .